الفصل الاول

مشـــروع

كان ذلك في سنة ١٩٣٢ و كنا جماعة من الشبان نفكر فى مناحى الخدمة الاجتماعية التى نستطيع أن نؤديها دون الاستعانة بالحكومة أو بالسلطات ودون دعاية طويلة عريضة يكون الغرض منها تكوين جمعيات او جماعات أو ما أشبه . وانما كنا نفراً قليلا و كنا لا نستنكف أن نبقى كما نحن نفراً قليلا، ومع ذلك فقد كنا نشعر أننا من الطبقات المحظوظة فى مصر لكل منا عمله الذي يقوم به على وجه مرض ويتناول فى نظير تأديته أجراً لا بأس به يكفي الواحد منا ليعيش كما تعيش الطبقة المتوسطة ، نأكل فنشبع وننام فنستريح ونخرج من منازلنا فنروح عن أنفسنا لأننا نملك من المال ما يكفى لهذا الضرب من العيش وهذا النوع من الترويح عن النفس.

ثم كنا نفكر فى بلدنا أيضاً ، تثور نفوسنا للتقلبات السياسية فى مصر ، فنتحدث فى السياسة ثم تتقزز نفوسنا فنرجع العلل عندنا للاخلاق تارة وللفقر تارة وللجهل تارة وللحياة الاجتماعية من أولها إلى آخرها تارة أخرى ، كنا نشكو ونلوم ، نشكو السلطات ونلومها لأنها لا تفعل هذا أو ذاك ، نشكو الشعب ونلومه لأنه باق كما هو دون تغير أو تقدم ، ونحزن للفلاح ونحزن للعمال ونحزن لأطفال الشعب كيف ان هؤلاء جميعاً لا يجدون رعاية أو عناية تكفل لهم حياة محتملة فيها الكد والعمل المضني ولكن فيها أيضاً بعض المتعة والترويح عن النفس . كانت هذه الخواطر تجول بأنفسنا ولكن لم نكن ندري ماذا نفعل ، كنا نظن أن العمل من شأن غيرنا ، من شأن الحكومة والسلطات لأن للحكومة سلطة وسلطاناً ومالا وفيراً تستطيع

بهذه جميعاً أن تحدث أمراً في هذا البلد . وأما نحن فيكفينا أن نلقي نظراتنا إلى الحياة عندنا ونشكو من الشكوى من هذه الحياة في مجموعها وفي تفصيلاتها .

ثم تنبهنا إلى أننا جزء من هذه الحياة الفاسدة ، وانها فاسدة لاننا نحن لا نعمل على إصلاحها بما في وسعنا من جهد ، وان الحياة تصلح في مجموعها إذا صلحت جزئياتها ، وان الفرد مهما صغر شأنه يجب أن يعمل ما في وسعه ، وأنه يستطيع أن يفعل الشيء الكثير ، وأن النظرة السطحية العامة إلى الحياة لا تفيد ولا تجدي ، وأن ما يفيد ويجدي في الواقع هو النظر إلى التفاصيل والعمل على تقويم هذه التفاصيل ، وان هذه أموراً لا تستلزم حكومة أو سلطاناً أو مالاً ، وانما تستلزم جهوداً متواضعة يقوم بها الأفراد ، ثم السنا نحن أفراداً . أليس من واجبنا ان نعمل ما نستطيع في سبيل الاصلاح ، أليس من العار علينا أن نقعد منتظرين مجيء الاصلاح على أيد غير أيدينا وبعمل أناس غيرنا ، ثم ماذا يستطيعه الغير ونعجز عنه نحن ، ماذا يستطيع الفرد العادي المثقف ان يفعل ، ثم ماذا يمنعنا ان نفعل مثلما يفعل ونبذل من الجهد والمال مثلما يبذل .

تنبهنا اذن إلى أن هذا البلد لا يحتاج الى أناس يبكون وينوحون على فساد الحياة عندنا من الوجهة السياسية والاقتصادية والصحية والاخلاقية ، وأن البكاء والنواح لا يعودان على أحد بفائدة ، لا بل ان دلا على شيء فانهما يدلان على عدم فهم الشاكي للحقائق أولا ، ثم هو محاولة منه للتحلل من مسئوليات لا يجوز له عقليا أو أخلاقيا أن يتحلل منها ثانيا .

فاستقر رأينا على أن نعمل ، فاجتمعنا وكونا جماعة لدراسة بعض النواحي الاجتماعية القريبة منا والتي يمكن لمجهوداتنا الضعيفة أن تؤثر فيها ، وبعد البحث والاستقراء وضعنا المباديء الآتية لعملنا :

١ — يجب أن يكون عملنا متواضعاً تكفي مجهوداتنا الشخصية للقيام به دون الاستعانة بأحد بحيث نستطيع ان نستمر فيه إذا تبين لنا نفعه .

٢ — يجب ان يكون عامل الاختبار والتجربة فيه متوافراً بحيث نستطيع أن نغير الاتجاه لمجهوداتنا متى تبين لنا بالاختبار والتجربة أن التغير أجدى على العمل الذى نقوم به .

٣ — يجب ان يكون عملنا موقوتا بحيث لا نضطر إلى التوقف فيه اضطراراً وانما نقف عند حدمعين إذا تعذر علينا الاستمرار فيه لضرورات مادية او معنوية ، وبمعنى آخر قررنا ان نعمل مدة محدودة من الزمن ثم نراجع أنفسنا فيما عملنا هل نستطيع ان نبذل نفس المجهود أو مجهود أقل منه أو أكثر ، وهل نستمر فى نفس العمل مدة مساوية للمدة السابقة أو أقصر أو أطول ، وهل العمل الذى نعمله هو الواجب أن يعمل أم يجدر بنا أن نجرب أمراً آخر .

٤ — مجال الخدمة فى البلد واسع الأرجاء ولا يمكن أن يضيق بعمل من الأعمال النافعة فماذا نختار منها ولماذا نختار ما نختار بالذات ، ألأنه مفيد للبلد حقاً ، أم لأنه يطابق هوى فى نفوسنا فيشبع فيها غرائز معينة تتطلب الارضاء ، وبعبارة أخرى هل نقبل على عمل معين لأن هذا العمل له نتائج نلمسها فترضينا وتريح نفوسنا القلقة ، أم نعمل شيئاً يرضى العقل بغض النظر عن الانفعالات النفسية فينا .

فاطعام الجائع يشبع شهوتين ، شهوة الجائع إلى الطعام وشهوة المعطى إلى الشعور بأنه يرضى فى نفسه غريزة فعل الخير ، الجائع يشبع بطنه ، والمحسن يشبع عاطفته ، الجائع يشكر المحسن والمحسن يشكر نفسه ، أحدهما مدين والثاني دائن ، له فى عنق هذا فضل أخذ أجره شعوراً نفسياً بالرضى عن النفس وفى نفس الوقت ينكر هذا الأجر ولا يعترف له بوجود لا بل يحتسب له أجراً عند الله حيث تنصب الموازين ويرد المعروف لأهله .

ونحن لا نريد هذا فلا نبغى من عملنا أجراً نفسياً أو مادياً ، ثم لا نريد أن نحاسب عما نعمل فى يوم الدين وانما يجب ان يكون لنا مأرب آخر غير

هذا وذاك ، وهو ان نعمل شيئاً من شأنه ان ينفع الناس بعد عشرات من السنين ، فلا نطمع أن نرى بأعيننا الخير الذى نعمل وانما نعمله لأنه هو دون غيره مايجب أن نعمل ، إذ أن البلد فى حاجة شديدة اليه وكان يجب أن يعمل من سنين مضت حتى تظهر آثاره فى حياتنا الآن ، أما وإنه لم يعمل إلى الآن فان النقص في حياتنا ملموس من جميع النواحي ، وحتى لا يبقى هذا النقص قائماً بعد عشرات السنين فيجمل بنا ان نبدأ الآن وان نبدأ في تواضع فنعمل جزءاً بسيطاً مما يجب ان يعمل ، وقد يتنبه الناس إلى أهمية ما نعمل وقد لا يتنبهون ، فاذا كانت الأولى اقبلوا على سلوك نفس السبيل إلى الاصلاح ، وإذا كانت الثانية فقد قمنا نحن بما يجب علينا وبما تسعه جهودنا وكفى ، وسوف يبقى ما عملنا للبلد وسوف يحول سير الأمور فيها ، فتنحرف انحرافا ضئيلا جداً لناحية الاصلاح الحقيقى النافع ، ثم نموت نحن وتنتهي مجهوداتنا الشخصية .

ولما أن وصلنا فى تفكيرنا إلى هذا الحد بعد أن وضعنا هذه المبادىء العامة وهي أننا نعمل بأنفسنا دون ان يقعدنا الاعتماد على الغير أو يشل أيدينا ، ونعمل فى حدود طاقتنا لا أكثر ولا أقل ، ونعمل لمدة من الزمن محدودة معينة بحيث عند انتهائها نكون قد قمنا بما آلينا على أنفسنا أن نقوم به ، فلا نشعر أننا ملزمون بالاستمرار خوفا على سمعتنا أو تحت تأثير أدبى أو مادى أو خوفا من ضحك الناس منا ، ثم نعمل فقط للنفع الذى يعود من عملنا على الغير بحيث لا نهتم سواء أكنا نرى بأعيننا آثار العمل الذى عملناه أم لا نرى هذه الآثار ، بعد أن اتفقنا على هذه القواعد وقبلناها دستوراً لأنفسنا نظرنا إلى وسائل الاصلاح فى ذاتها .

قلنا وسائل الاصلاح ولم نقل أغراضها لأن هذه الأخيرة ليست مجالا لخلاف كبير أو قليل فى مجموعها ، إذ يكاد يجمع الناس على هذه الأغراض وتكاد كلها تنحصر في تقويم الأخلاق وتوفير أسباب العيش المادية أي تحسين الغذاء والصحة وتدبير العلاج والماء النقى والمنزل الصحى وتعليم

مبادىء القراءة والحساب . هذه فى مجموعها أغراض الاصلاح مع تغيير طفيف فى الاتجاه ومع التفاوت فى تقدير أهمية هذه العناصر التى يتكون منها الاصلاح ولكن الجميع متفقون على أن الاصلاح يتناول هذه جميعاً لأن الشعب فى شديد الحاجة اليها جميعاً .

أما الأمر فى الوسائل فعلى النقيض من هذا ، فهى علة العلل فى عجزنا عن الاصلاح وفى التضارب والتشويش الذي يسود الأفكار ، ففي البلد من وسائل الاصلاح بقدر مافيها من أفراد معنيين بالاصلاح ، فيها من يظن أن الاصلاح يقوم على محاربة العادات السيئة فى الجنازات ، مثلا يجب أن يحمل الميت بطريقة معينة ويسير به المشيعون بطريقة معينة وأن المشيعين يجب أن لا يصرخوا أو يرتلوا أو يرددوا الدعاء بأصوات عالية ويجب أن لا تسير النساء في الجنازات بشكل يسىء إلى سمعة البلد أو يمجه الذوق ، والسبيل إلى القضاء على هذه العادات المعوجة أن تصدر القوانين التى تحد من هذه التصرفات القبيحة فى نظرهم ثم على رجال البوليس أن ينفذوا هذه القوانين بالدقة وبالشدة اللازمة فنستريح وينتهى الاشكال .

وهذا الضرب من الاصلاح به جميع العيوب التى نريد أن نتحلل منها ونريد جماعاتنا أن تتجنبها ، فهو أولا نوع من الشكوى والتذمر التى لاتغنى ولا تفيد فالشاكي لايريد أن يعمل شيئاً بنفسه وانما يريد أن يشكو ثم يترك العمل لغيره ، لمشرعي القوانين بالبرلمان والوزارة ثم لقوة البوليس وما عليه هو سوى أن يشير بأطراف أصابعه الى العلل فيبادر غيره الى العمل والاصلاح وبعد فليس هذا بالاصلاح الصحيح ، الاصلاح الذي يبقى للبلد ويدوم ويغير في الأجيال القادمة بحيث تصبح أنفع للحياة وأقدر عليها ، ثم أن هذا أمر زواله يريح الشاكي ويبث فى نفسه الراحة والسرور أكثر مما ينفع الناس المراد إصلاحهم وبعد فأرغام الناس بالقانون على إتيان شىء معين ليس معناه أننا غيرنا ما بنفوسهم .

هـذا مثل بسيط من وسائل الاصلاح أوردناه للتدليل وقد لايكون من خيرة الأمثلة أومن أولها على ما نرمي اليه ولكننا نستطيع أن نورد غيره كثير فهناك من يظن أن خير وسيلة لاصلاح البلد أن تبني الحكومة منازل صحية للفلاحين أو للعمال أو تعمل على توفير المياه الصالحة لهم أو تدبر الأجور الكافية وهى أمور ضرورية لاشك من ذلك وانما هي مشروعات خيالية لاتستند الى حقائق الحياة المصرية ولا يمكن تحقيقها عن طريق عمل تقوم به هيئة أو حكومة بعيدة عن مساهمة المنتفعين بهم مساهمة مبنية على الرغبة والدراية وعلى الشعور العميق بلزومها عند أولئك الذين يفيدون منها وبعبارة أخرى لايمكن لحكومة أن تبني للفلاح بيتاً لا يرى هو ضرورة له ولا يرى فائدة كل ركن من أركانه وكل قدم من مرافقه ويؤمن بها ايماناً عميقاً ويعرف على التحقيق كيفية استعمال جميع مرافقه على الوجه الصحيح لايمكن أن يسمح لماشيته أن تفارقه سواد الليل فتنام فى مكان بعيد عن مكانه إلا إذا كان يرغب فى هذه رغبة عميقة بعيدة الغور فى نفسه ويطلب الأمر لنفسه بكل وسائل الطلب .

وبالاختصار وجدنا أن الاصلاح عندنا يتردد بين سبيلين لاثالث لهما وان الداعين اليه ينقسمون الى فريقين فريق يهمه الأثر المعجل الذي يتركه عمله فى نفس الجمهور دون الغرض النهائي من هذا العمل هذا يريد أن يرى الناس ويرى هـو معهم أثر عمله فى الحياة ، يريد أن يقول للناس هاكم ماعملت وهاكم أنا حي أرزق بين ظهرانيكم فاشكرونى على عملى واربتوا لى على ظهري وهـذا هو الغالب بالأسف فكل ذى سلطان عندنا يريد أن يرى بنفسه أثر ماعمل يريد أن يبنى القرى ويجفف البرك ويفتح الطرق ويبنى المستشفيات ويفتح المدارس وينشىء الوحدات الصحية ويفتح خزائن الدولة للفقراء يطعمهم ويجمع لهم من الشعب مايطعمون به ويقدم لهم اللحمة فى الأعياد والكساء فى الشتاء ويعطيهم العدس والأرز والصابون وهـذه كلها

اشياء يستطيع أى انسان أن يصنع مثلها وهي بعض أشياء تترك أثرا معجلا فى نفوس الناس وتجعلهم يتحدثون بها والحديث فيها مستحب للوزير أو الكبير .

والفريق الثانى وهو النادر لسوء الحظ هم أولئك الذين ينظرون الى بعيد ، ينظرون الى حالة مصر بعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، ما هى عليه الآن وما يجب أن تكون عليه حينذاك وماذا يلزمها حتى تصبح على الصورة التى يتخيلها بعد مرور هذا الزمن ، أو بعبارة أخرى يهتمون للأغراض البعيدة من الاصلاح ويغفلون الأثر الوقتى الذي تحدثه أفعالهم فى نفوس الناس وفى الرأى العام . ينظرون الى المشروع فى جوهره هل هو لازم ، هل هو يؤدي الى غاية الغايات وهي نفع الشعب المصري فى مجموعه أو نفع الغالبية منه ، إذا كان الأمر كذلك فلا يهم اذن ما يحدث لهم فى الحال .

هذا من جهة عقلية القائمين بالاصلاح أما من جهة سبيل الاصلاح فله شعبتان ، شعبة تنحرف لطريق مادي صرف أساسه اقتصادي بحت ، والذين يدعون الى سلوك هذا السبيل يؤمنون أن أساس الحياة فى مجموعها ، الحياة من الوجهة المادية والمعنوية ، الصحة وسلامة البدن ولذة العيش والأمور الاخلاقية والاجتماعية والروحية والمثل العليا كلها تنبنى أولا وآخراً على الجنيه والمليم ، فأطفال الشعب يسرقون ويخطفون لأنهم جياع والفلاح يضيق بالحياة ويقتل منه زمام نفسه فيقتل لخلاف بسيط قد لا يتعدى بالخلاف أن يكون على بصلة والشعب لا ينشط كأمة متحدة لها أغراض معينة تسير اليها فى كتلة واحدة لأنه فقير مريض عريان لأنه يشرب ماء قذرا ويسكن فى مساكن وضيعة ، فسبيل الاصلاح عند هذه الطائفة هو سبيل اقتصادى مادي لاغير ، متى اصلحنا الأسس الاقتصادية في مصر فقد أصلحنا الحياة الأدبية والقومية والروحية .

والداعون الى سلوك السبيل الثاني قوم يؤمنون بالقيم الانسانية يؤمنون بأن الانسان كائن يستطيع أن يتحكم فى بيئته ويغيرها بنفسه حتى تصبح

ملائمة لحياته ، وأنه في ذاته قوة يمتز بها يمكن توجيهها الى حيث تنشط وتنتج وتغير معالم الحياة والعيش حولها بحيث تصبح على الوضع الذي يراد لها ، فهم يزعمون بأنك تستطيع أن تغير الحياة المادية وتحسن الصحة العامة وتقضي على الأمراض وتزيد الانتاج الاقتصادي وتبني الدور الصالحة للسكنى متى غيرت من نفسية الشعب ومن مثله العليا ، ومتى أصبح الشعب عارفاً لما يريد والسبيل الى ما يريد ، فأول ما يصنع المصلحون هو أن يعرفوا الشعب ما يريد ثم يدلونه على السبيل الى تحقيق هذه الارادة فيعمل هو لنفسه ما يريد الفريق الآخر أن يصنعه له ، فكثير من الأمراض مثلا يمكن القضاء عليها متى عرف الفلاح أمكنة المرض ووسيلة اتقائه وطريقة مقاومته ومتى أحب النظافة وأقبل عليها من تلقاء نفسه ومتى ضاقت نفسه بالقذارة في ثيابه وبدنه ومتى كانت وسائل النظافة سهلة بسيطة عليه لا تكلفه جهدا كبيراً أو مالا قليلا أو كثيراً ومتى شعر أن نظافة بدنه عنده مقدسة كالوضوء والصلاة سواء بسواء وضرورية كالأكل والغذاء ، متى كان الفلاح في مثل هذه الحالة النفسية لا يحتاج المصلحون الى بناء المستشفيات وتوفير مياه الشرب وزيادة دخل الفلاح للقضاء على هذا المرض بالذات .

فطائفة منهما تقول انك تستطيع أن تشتري نوع الحياة التي تريدها للشعب بالجنيه والطائفة الأخرى تقول أن المعدن الانساني في الشعب هو الذي ينتج له ما يريد من الجنيهات متى كانت نفسية الأفراد مستقيمة قوية بعيدة عن العلل المعنوية تحل المسائل المادية من تلقاء نفسها . الطائفة الأولى تزعم أن الحياة متوقفة على المادة والثانية تزعم أنها متوقفة على الناس ، الأولى تقول أن مشكلة مصر في الانتاج وتوزيع هذا الانتاج والطائفة الثانية تقول أن مشكلة مصر في أفراد الشعب في ميولهم وأفكارهم وعاداتهم ومثلهم العليا الأولى تدعو الى التفسير الاقتصادي للتاريخ والأخرى تدعو الى التفسير الروحي للتاريخ .

وبرنامج الاصلاح يجب أن يسلك السبيلين معاً يجب أن تستنبط

الخطط لتقويم نفوس أفراد الشعب وتحسين وسائل معايشهم وفى نفس الوقت يجب أن تدرس المسألة بجميع تفاصيلها فتتعاون جميع الهيئات وأصحاب جميع المذاهب الاجتماعية والأخلاقية والدينية فى وضع خطة عامة مشتركة مفصلة ومرهونة بأوقاتها ويشرع فى تنفيذها على عدد معين من السنين ثم تشرع كل جماعة وكل هيئة فى تأدية ما يجب عليها فى حدود البرنامج العام وبرنامج كهذا لا يمكن أن تضطلع به هيئة واحدة سواء أكانت حكومية أم أهلية لأن وضعه يستغرق مدة طويلة وجهوداً كبيرة ويظن أنه قد يستغرق السنين ويستلزم عملا متواصلا من الاخصائيين وقد يوضع فى بضع مجلدات ضخمة .

ونظن أن برنامجاً كهذا يجب أن يبدأ باعداد الشعب للاصلاح بحيث يفهم ما يراد له وما يراد منه لتحقيق الخير له وقد كانت هذه النقطة ولا تزال مثارا لخلاف كبير بين الطبقات العالية أى المثرين والمثقفين وأصحاب المهن ذلك لأن الداعين اليها يستعملون ألفاظاً مبهمة تؤدي الى مظان يأباها هؤلاء ويظنون أن فيها شراً كثيراً لاقبل للأمة بدفعه إذا انبث فى نفوس الناس .

يدعو هؤلاء بطريقة مبهمة الى التعليم فهم يقولون أن الشعب جاهل وأن الجهل أساس جميع الشرور والسبيل الى القضاء على هذه الحالة انما هو فى التعليم فعلينا بالمدارس نبثها فى جميع أنحاء البلاد من أقصاها الى أقصاها تعلم أبناء الشعب وتهذبهم وتفتح أذهانهم فيصبحوا عارفين مستنيرين الى آخر هذا الكلام فيتزعج هؤلاء ويضطربون خشية التغير السطحى فى حياة أبناء الفلاحين فقد يلبسون الطربوش ويبرمون بحياة الريف ويستنكفون أن يعملوا مع أهلهم وذويهم فى افلاح الحقول ورعاية الماشية ويظنون أنهم أصبحوا من طينة غير طينة الفلاح ثم ينزحون الى المدن فيوجدون إشكالا اجتماعياً لاقبل للبلد بحله وتشرف الحياة الاجتماعية فى مصر على الانهيار للعبادىء الاقتصادية المتطرفة التى قد يعتنقها هؤلاء ومانتج كل هذا إلا من استعمال ألفاظ مبهمة ومعان فضفاضة قد تفسر على وجوه كثيرة .

والواقع أن الاشكال قائم على المظاهر دون الجوهر والحقائق فلا نظن أن الداعين إلى التعليم يقصدون التعليم كما نراه فى القاهرة وكما تقوم به وزارة المعارف من تغيير فى المظهر وحشو الأدمغة بالقشور التي لا تغنى ولا تجدي وإنما نظن أنهم يقصدون بالتربية تربية أبناء الشعب وتغيير عقلياتهم وميولهم ونظراتهم للحياة والعمل والصحة ونظافة البدن بحيث يصبحون أصلح للحياة القروية منهم الآن وأقدر على الانتاج فى الحقل وفى رعاية الماشية وفى الحياة البيتية المنزلية منهم الآن .

يقصدون من تربيته أن يجعلوه قادراً على أن يستغل بقرته مثلا خيراً مما يستغلها الآن ، كيف يطعمها ويسقيها ويعتني بها ويعد لها المكان الملائم الذي يتفق وأحسن وجوه الاستغلال ، وفيما يصرف نقوده عليها ماذا يطعمها وفصول الطعام ونوع الطعام اللازم للحيوان الذي يشتغل فى الجرن والرى والنوع الذي يصلح للحيوان اللبون ومقدار اللبن والجبن والزبد التى تنتج من أنواع الطعام ، وكيف يربي الماشية للحمها وماذا يلزم لهذا النوع من الماشية من أكل وراحة وما هو الطعام الذى ينتج الدهن والذي ينتج اللحم الأحمر وهكذا من هذه الأمور وأمثالها كثير لاحصر له ، وبعبارة أخرى يقصدون من التعليم مجموع المعارف اللازمة للفرد فى بيئة معينة بذاتها والبيئة فى حالتنا الراهنة انما هى البيئة القروية فى الريف المصري وسط المزارع والحقول المصرية — هذا هو التعليم فى معناه عند هؤلاء .

أما التربية فهي تنصرف إلى النفس وإلى الميول والمزاج والتصرفات بين الناس والعلاقات الاجتماعية كلها والأخلاق ، فالتربية إذن ليست دعاية لنوع معين من النظم الاقتصادية أو السياسية سواء أكانت هذه النظم متطرفة أو محافظة ليست هي بث الدعاية البلشفية أو النازية أو النزعات الاستبدادية والواقع أنه لا خطر على الاطلاق من تربية الشعب وأبناء الشعب لأنها وسيلة لغرض يضعه أصحاب الشأن وأرباب البلد ، وما على المربين إلا أن يستنبطوا الوسائل لبلوغ هذه الغاية ومن المستطاع تحديد الغاية ومن الممكن ان يساهم

فى وضع هذه الغاية من يخشى هذه النظريات المتطرفة ويحذروا بالضبط الاغراض السياسية والنظم الاجتماعية التى تتفق ومزاجهم ثم يأخذ المربون هذه الأغراض وينفذونها كما هى بحيث يصلون إليها فى مدة معينة من الزمن.

ولا يمكن أن تكون الثورات والانقلابات الاجتماعية الخطيرة من عناصر الاصلاح ، فالاصلاح من شأنه أن يؤدي إلى التوازن والاستقرار والطمأنينة على الحياة والمال ، والمتاع يرمي إلى إسعاد الناس وتوفير أسباب العيش لهم حتى يرتضوا الحالة التى يقيمون فيها وحتى يعملوا مختارين على دوامها واستمرارها مع تغيرات طفيفة تطرأ على الحياة من حين إلى حين تبعاً للتطورات العلمية فبدلا من أن يستعمل الفلاح حماره مثلا في الانتقال من بلده إلى البندر يستعمل السيارات العمومية وبدلا من أن يستمع لهجائز البلد يتحدثون بالاخبار ، ينصت لحديث من القاهرة يذاع بالراديو وهذه التغيرات لا بد وأن تحدث بتقدم الزمن وهى تغيرات لا ثورة فيها ولا انقلابات اجتماعية أو سياسية أو دينية ، أما التعليم والتربية التى تقسم المصريين إلى طوائف وجماعات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تشعر كل منها بأن مصالحها تتعارض مع مصالح باقى الطوائف والجماعات فهي من أخطر الوسائل فى الاصلاح بل لا تمت لهذه الغاية بصلة ما .

مرت كل هذه الخواطر برؤوسنا ونحن ندرس وسائل الاصلاح وما تستطيعه جماعتنا الضعيفة القليلة أن تصنعه فى هذا السبيل . قبلت الجماعة اذن هذه المبادىء كدستور لها تسير بمقتضاه وتنشط فى ضوئه وتهتدى بهديه وآل أفرادها على أنفسهم أن يؤدوا ما يطلب اليهم عمله فى حدود هذه القواعد العامة.

ثم قررنا أن نبدأ عملنا بين أبناء الشعب الصبيان ما بين العاشرة والخامسة عشر ، أما لماذا اخترنا هذه الطائفة بالذات دون جميع الطوائف وهذا النوع من الخدمة دون سواه فأمر سوف يتبينه القارىء من سياق الكلام في هذا

الكتاب والواقع أن هذا الكتاب يدور من أوله إلى آخره على هذه النقطة لماذا نبدأ الاصلاح بالأطفال دون سواهم ولماذا هذا البرنامج يقدم لهؤلاء الأطفال وليس برنامج آخر ، لماذا لا نطعمهم أو نكسوهم أو نعلمهم القراءة والكتابة ونكتفي أنفسنا مؤنة برنامج قد لا يفهمه الجمهور وقد يظن أن لا فائدة منه ترجى لا بل قد يظن أنه نوع من الهوس الذي تملك القائمين به فقاموا به دون اعتبار لشيء آخر كما يخطر للمتوه أن يأتي عملا معيناً فيفعله لأنه لا يملك من نفسه إلا أن يفعله .

ولكن ولسنا متوهين أو مخبولين وانما نظن أننا نسلك السبيل الوحيد الممكن للاصلاح والذي يجب أن تبدأ من عنده جهود المصلحين جميعاً وهذا أيضاً سوف يتضح للقاريء الذي يتتبع فصول هذا الكتاب ونظن أنه سوف ينتهي به الأمر إلى قبول وجهة نظرنا وإلى الاعتقاد بسلامتها من الوجهتين النظرية والعملية فلنترك إذن الأسباب التي حدت بنا إلى خدمة هذه الطائفة دون سواها وإلى إتباع هذا المنهج في الخدمة دون سواه نترك هذا حتى يجيء مكانه من هذا الكتاب .

نترك هذا ونعود إلى قصة الجماعة حيث وقفنا عندها .

قررنا اذن أن نتصل بابناء الشعب الصبيان الذين يملأون الشوارع والطرقات لا هم لهم الا الفوضى يذيعونها بين الناس والقانون يعبثون به في كل لفتة من لفتاتهم وكل حركة من حركاتهم فيعطلون سير الحياة الطبيعي ويصبحون حملا ثقيلا على الناس في غدواتهم وروحاتهم ويخلقون جوا من الحياة الاجتماعية يحيط بالمدن الكبيرة يكاد لا يحتمل لا بل يكاد يودي بالحياة الاجتماعية المصرية من اساسها فبين ظهرانيهم تنبت الأمراض والجراثيم وهم الحقل الخصب للامرض والجراثيم تزرع فيهم فتنبت وتزدهر وتثمر فتفسد الحياة المصرية .

قررنا أن نعالج هذه الحالة في موضع أو موضعين لنرى هل من الممكن أن

يقضى على هذا الداء وهل يصلح ما نعمل اساسا لعمل قومى كبير يصح أن يصبح منهاجاً للاصلاح فى البلد وعلى كل حال اتجه تفكيرنا إلى هذه الناحية بغرض الدرس إن لم يكن بغرض الاصلاح. فاعتزمنا أن نوالى بعض هؤلاء الصبية بالاتصال الشخصى بيننا وبينهم فنبث فيهم نوعا من المعايير الاجتماعية غير ذلك النوع الذى يحتضنونه ، نوعا يخلق بينهم وبين بيئتهم روابط وأوشاج غير تلك القائمة فعلا بينهم وتنظم العلاقات بينهم كأفراد بحيث تصبح على أساس غير الأساس الذي تقوم عليه الآن وتعطى لهم فكرة عن واجب الفرد نحو جسمه وعقله ومظهره ثم نحو حكومته وبلده والنظم القائمة والقانون الذى ينظم العلاقات بين الناس ورجل البوليس الذي يسهر على تنفيذ القانون، وقد يسيء تنفيذه وعن الملكية والمنافع العامة إلى آخر هذه الأمور التي هى لباب الحياة الاجتماعية ونسيجها وبعبارة أخرى نريد أن نقلب هذا الصبي الخارج على القانون إلى إنسان متمدين وطنى يصلح لأن يكون حجراً فى بناء قومي ثابت متين .

وكان أحدنا قد دعى إلى عشاء يقيمه بعض الناس مرة فى السنة بالقاهرة يتناولون فيه عشاء من العدس والخبز فقط يدفع كل فرد فى نظيره ثمناً لا بأس به ولكنه يزيد أضعافاً مضاعفة عن التكاليف ثم يسمونه عشاء «الضيف الغائب» وكان من عادة المحتفلين أن يقيموا فى مكان آخر في نفس الوقت حفلة عشاء فخمة لبعض أطفال الشعب يصرفون عليها مما يتوافر لهم من عشاء العدس فاعجب هذا الانسان بهذه الفكرة فنقلها لجماعته مع تغيير بسيط فى التسمية وفي الغرض

واتفقت الجماعة على تسميتها «عشاء الأخ الصغير» قوامه العدس والخبز والماء يجتمع إلى هذه المائدة عدد كبير من أصدقاء الجماعة يتناولون هذا العشاء ثم يستمعون إلى كلمات تلقى عليهم عن الغرض من ذلك الحفل وأذكر أن أول من تكلم فى هذا الحشد هو الدكتور طه حسين .

واجتمع لنا مبلغ بين الأربعين والخمسين جنيها على ما أذكر فابتعنا بعض أدوات اللعب ثم ذهبنا إلى حي باب الشعرية حيث يكثر الأطفال ووضعنا اليد على أرض فضاء وأخذنا نمارس ألعابنا ونسمح للاطفال أن يساهموا معنا فيها وقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع أسس الاتصال الشخصي بيننا وبينهم. ذهبنا لنلعب معهم فلعبوا معنا وان كانوا في شك من أغراضنا الخفية والمستترة التي نسعى إلى تحقيقها عن طريق اللعب ونحن نعلم أن أساس التظنن والشكوك هو في عدم معرفة الأفراد معرفة عميقة تشمل كثيراً من النواحي الشخصية حتى لتكاد تشرف على الصداقة وإذن فليكن غرضنا الأولى المبدئي التعارف والتعرف على هؤلاء الصبيان ومعرفتهم لنا معرفة أساسها طول زمن الاتصال بيننا ، وكان همنا الأول تقديم أنفسنا لهم بحيث يطمئنون الينا وهذا بالطبع يستغرق زمناً طويلا ولا يحسن له التعجل أو الاندفاع .

وبالطبع أخذ الأطفال يتكهنون عن شخصياتنا ونياتنا وأغراضنا وهذا طبيعي جدا ومعقول جدا ومقبول أيضاً أن نتقبل كل التهم التي تكال لنا بصدر رحب وندفعها في لين وهوادة وإن عجزنا عن دفعها فلنتركها للزمن يقتضي عليها متى عرفنا هؤلاء الصبيان حق معرفتنا ، فغرضنا الأول اذن هو أن نعمل بكل الطرق الممكنة على تعريفهم بنا ولتكن هذه العملية بطيئة طبيعية لاتصنع فيها ولاتعجل عالمين أن الأمور مرهونة بأوقاتها .

فأول ماقابلونا به كان الطوب والحجارة يرمونا بها والشتائم تنهال علينا وعلى أمهاتنا وأبائنا وكانوا يفهمون اللعب معنا على أنه فوضى وتنازع بين كل فرد فيهم والفرد الآخر وبينهم وبيننا لايركلون الكرة بأقدامهم فيرسلونها من فرد الى فرد وانما يخطفونها ويجرون بها الى حيث ينفرد الواحد منهم بها ليلعب كما يحلو له واذا لم تمرر الكرة للواحد منهم عندما يطلبها يعتبر هذا العمل منا اهانة شخصية له وتحدياً واضحاً صريحاً ودليلا على نياتنا السيئة نحو شخصيته واننا نقصده بالذات ولانريده أن يساهم معنا

فى العابنا ، وبالاختصار يغضب كل فرد منهم إذا ترددنا فى توجيه كل منا لتسليته هو دون سواه .

أما العلاقات بينهم فقد كانت من النوع الذى لا يصلح مطلقاً لحياة الناس فليس للضعيف بينهم حقوق وليس على القوى واجبات أساسها الفرد منهم ما يستطيع وما لا يستطيع ما يحب وما لا يحب فاذا كان قوياً لا يعتبر الآخرين ولا يحس لهم وجوداً إلا فى حالة ، يرى أنه مستطيع أن يستغلهم لأغراضه الشخصية لا يمكن للصغير فيهم أن يتصرف الا طبقاً لهوى الكبير فاذا طلب اليه أن يكف عن اللعب كف دون تردد ، وإذا لم يفعل فقد يستجلب غضب الكبير والحال أنه معنى بدفع هذا الغضب بأى ثمن وبالاختصار كانت العلاقات بينهم قبيحة معوجة ضارة لا يمكن أن تصلح أساساً لجيل ترجو الأمة منه الخير والنفع ولا يمكن أن ينتج جماعة منظمة ترعى فيها الحقوق وتؤدى فيها الواجبات .

وربما انهم لم يحسوا فى حياتهم خيراً من أحد بل نشأوا على الشعور بأن الدنيا من أولها لآخرها تتآمر عليهم أفراداً بتلقفهم كل فرد من البالغين بالضرب والركل بسبب وبلا سبب يعتقبهم رجال البوليس لغير سبب مفهوم لديهم أو لأنهم خطفوا من أحد المارة نقوداً أو شيئاً يباع فى السوق لينتفعوا بثمنه أو لأنهم سرقوا شيئاً يأكلونه والخطف والسرقة فى نظرهم شىء لا غبار عليه مادام فى استطاعة الواحد منهم أن يفلت من نتائج عمله ، ومهما كان الشأن معهم فهم لا يجدون خيراً من الناس ويشعرون أن الناس لا ترجو خيراً منهم ولهذا نشأت بينهم وبين بيئتهم حالة من الريب والشكوك وانعدمت الصلاة الاجتماعية فيهم فلا يحسون هذا العطف الذى يحسه الأطفال فى البلاد الأخرى من مجموع الشعب فاذا ما اقتربت من أحدهم لتسأله سؤالا بسيطاً أخذ حذره منك واستعد للبكاء أو الهرب ان استطاع الهرب .

استقبلونا فى باب الشهرية بهذا الجو النفسانى الذى يعيشون فيه وعلى

ضموه هذه الحالة اخذوا يتكهنون بغرضنا الخفي من تجشم المشاق والانتقال من أماكننا الى مكانهم للعب معهم فقال بعضهم اننا كنا مبشرين . حقاً اننا كنا خليطاً من المسلمين والمسيحيين ولكن هذا لايهم في نظرهم فهم معنيون بالكشف عن اغراضنا الخفية وفي حالة مالم يكن لنا غرض معقول فالتبشير اولى عندهم من غيره .

وقال بعضهم اننا رسل البوليس حضرنا الى هذا الحي لنتبين مكانهم ونعرف اسماءهم وأمكنة سكنهم ومتى استوثقنا من هذه الشئون فسوف نهجم على حيهم بقوة كبيرة من البوليس ونقبض عليهم ونضمهم في سيارات مقفلة تنقلهم الى حيث لايعلمون ولا يعلم اهلوهم وعلى هذا كانوا يحرضون بعضهم باتخاذ الحذر منا فلا يطمئنون لنا كل الاطمئنان .

وقال آخرون اننا رسل المدارس الالزامية حضرنا الى حيهم لنعرف من لايذهب الى المدارس منهم فنرغم أهلهم على ارسالهم الى المدارس وهم بالطبع لايحبون المدارس ولا يرغبون في التعليم فكانوا دائماً على حذر منا حتى اذا بدرت من احدنا بادرة ولوا هاربين لينجوا مما ندبر لهم .

خطرت ببالهم جميع هذه الخواطر وغيرها كثير أما الغرض الحقيقي الذي في سبيله احتملنا ما احتملناه منهم ومن اهليهم فلم يخطر لهم ببال وكيف يخطر لهم أن انساناً نظيفاً في صحة جيدة تبين عليه آثار النعمة وبسطة العيش يخطر بباله أن يذهب كل يوم الى هذا الحي ليلعب في التراب والغبار ويسمع مايكره ويعامل بغلظة دون أن ينتقم لنفسه منهم ودون ان يرد هذه الغلظة بمثل ما يرد الناس عادة ، هذه حالة لايركن اليها لانها غير مفهومة عندهم على الاطلاق .